

اعتمد على التجريد وجسد روح حضارته

الفن الإسلامي... قيم جمالية متجددة

يتميز الفن الإسلامي عن غيره من الفنون القديمة بكونه من أوسع الفنون انتشاراً وذلك لإتساع رقعة الإمبراطورية الإسلامية التي امتدت من الصين شرقاً إلى أسبانيا غرباً، وقد أدى هذا الاتساع الجغرافي الكبير إلى اختلاف طرز وفنون شعوبها المختلفة وبعض عناصر وأساليب المدارس الفنية الإسلامية التي تكونت بها وعلى الرغم من هذا الاختلاف الجزئي، فس نجد أن هذه الفنون متشابهة في أصولها يجمع بينها الدين الإسلامي الذي نتج منه فن جديد عرف بالفن الإسلامي، وس نجد أن لكل فترة لونها الخاص من العظمة الفنية.

على الرغم من أن المكتبة العربية تزخر بأبحاث قيمة في الفنون الإسلامية قام بها علماء مصريون على جانب كبير من العلم بالإضافة إلى المراجع الأجنبية فإنه من الملاحظ وجود صلة عميقة بارزة بين مدارس الفن الإسلامي التي ظهرت في المنطقة وأثرت في الفنون الأوروبية في العصور الوسطى وفي عصر النهضة، فمما لا شك فيه أن مصادر الفن الإسلامي لها دور كبير في تكوين نواة هذا الفن حيث تعرف على الفن الساساني بعد فتح إيران والعراق، وعلى الفنانين الهليني والمسيحي البيزنطي بعد فتح سوريا ومصر، وإني أعتقد أنه ليس هناك حرج في أن يقتبس أي فن من عناصر فنية وجدت من قبل فباستثناء الفنون العريقة لبلاد العالم القديم كالفن المصري والفن السومري، نلاحظ انه ما من فن أزهى وانتشر إلا واقتبس من الفنون السابقة له، كما نجد ان كثيرا من عناصر الفن الإسلامي انتقلت إلى فنون الغرب.

وفي محاولة التعرف على القيم المميزة للفن الإسلامي، كان علينا في أول الأمر الوقوف على القوام الروحي لهذا الفن وكشف الغطاء عن مضامينه الفكرية والفلسفية وجوانبه الروحية والوجدانية، فهناك الركائز الأساسية التي أستمدها منها الفن الإسلامي قوامه الروحي، والذي يتأكد من خلاله كيف تواعم شكل هذا الفن مع مضمونه، وكيف حقق هذا الشكل الفني روح تلك الحضارة التي انبثقت منها الفن الإسلامي في روحه وفلسفته يقوم على التوحيد والتسامي والإيمان، ويسعي دائما للكشف عن الجوهر والمطلق وذلك يتجاوز كل مادي عرضي وزائل، فهو فن لايقوم على المعرفة العقلية بقدر مايقوم على الكشف والمعرفة الحدسية وهي أسمي درجات المعرفة، إنه فن حدسي المنشأ ميتافيزيقي المقصد ولهذا كان الفن الإسلامي فناً تجريديا يقوم على المطلق والمجرد لا على المحاكاة والتقليد حيث نظر الفنان الي مخلوقات الطبيعة كعناصر فنية يحورها ويبسطها وفق أحاسيسه ورؤيته ويحدد طابع الخلق الفني عنده، ولقد تاكد ان الفن الإسلامي فن إبداعى أصيل

وخلاق، يتعدى مجرد التزيين والتزيق كما أنه لايقوم علي الارتجال والعبث كما يدعى المدعون، ولكنه عمل جاد ورصين يبلغ درجة العبادة والتبتل والسعي دائما إلى الحق .. إلى الجوهر .. إلى الله .

ولقد كان الروح الاسلامية - فكرا وفلسفة وعقيدة - أبلغ الأثر في تشكيل الشخصية المتميزة للفن الإسلامي تلك الشخصية التي حملت بين طياتها الكثير من القيم الجمالية والتشكيلية الرفيعة التي جعلت هذا الفن محط أنظار النقاد والفنانين والدارسين على مستوى العالم، إلى جانب ما ينطوي عليه الفن الإسلامي من قيم روحية تنبع من إيمان الفنان وعقيدته، بالإضافة إلى تلك الخصائص الفنية التي أنفرد بها هذا الفن بما يكسبه طابعه الفريد وشخصيته المميزة، وفضلاً عن القيم الجمالية التي ينطوي عليها هذا الفن مما يجعله فناً إبداعياً أصيلاً من الدرجة الأولى فإن الفن الإسلامي ينطوي أيضاً على جانب كبير من الحداثة والمعاصرة، حيث يحمل الكثير من الملامح والاتجاهات الفنية التي نراها اليوم في مدارس الفن الحديث مما يجعله على الرغم من تلك القرون الطويلة التي مضت عليه، فناً عصرياً يحمل ذوق العصر الحديث وينطوي على روحه واتجاهاته كما يجعله أيضاً فناً عالمياً يحمل من القيم ما يخرج به عن حدود المحلية الضيقة إلى الآفاق العالمية الرحبة، ليكون دائماً مواكباً لكل عصر وزمان.

ولقد كانت كل هذه الصفات التي أتصف بها الفن الإسلامي من أكبر الأمور التي أغرت فنان عصر النهضة لأن يتجه الي ذلك الفن مستلهماً إياه مستنجداً به لينشله من ازمته ويخرج به من دوامة عجزه، فلقد ظل الفنان التشكيلي طوال تاريخه الطويل قبل بزوغ القرن العشرين مرتبطاً بالواقع المرئي تمام الارتباط ، شديد التمسك بمحاكاة الطبيعة في جميع اعماله حتى شعر الفنان في النهاية بعجز هذه الاساليب الفنية عن مواكبة مسيرة التطور الفكري والجمالي والحضاري وأدرك ان الثورة علي التقاليد الفنية القديمة أمر محتوم وان البحث عن منابع جديدة تثري وجدانه هو طريقه الوحيد للخلاص ووسيلته للخروج من تلك الأزمة. تأثر الأوروبيون بالعرب المسلمين في مجال فن البناء الحربي فمن قلاع مصر وسوريا اقتبس الصليبيون أساليب معمارية كالمشربيات واقتبس الأوروبيون الأسوار والأبراج البارزة :

وكانت فنون الشرق من تلك المنابع التي اتجه إليها الفنان الحديث وعكف علي دراستها والكشف عن قيمتها الجمالية والروحية، وكما يقول محمود الشال : فإن أصالة الفنون الإسلامية على أختلاف صورها وتعدد ميادينها ليست في حاجة إلى دليل فقد عرف الفنان المسلم علي مدي العصور ألواناً شتى من ضروب النشاط الفني خلال المراحل التاريخية التي

تتابعت حلقاتها منذ القدم حتى وقتنا هذا وعلى الرغم من تمثيل الفنان المسلم لمظاهر الحياة التي تحيط به وماتزخر به من صور مرئية للأعمال المتنوعة المختلفة، فقد أيد كثيرا من الموضوعات الحيوية والقصصية التي تشمل جوانب المجتمع كله وتتناول حياته اليومية، لا بال نظرة الناقل المقلدة، ولكن بالبعد عن طبيعتها فجرد معالمها وقد لجأ الفنان المسلم إلى التجريد لكي يرتفع بفنه فوق مرتبة التقليد وهو بهذا يتجه اتجاها جديدا لم يكن معروفا من قبل وهو ان الفن ليس نقلا صادقا للطبيعة وللواقع بل هو ابتداع صورة جديدة تخضع للاصول والقيم الجمالية وتحلق بنا باشكالها وظلالها وأضوائها إلى عالم نهرع إليه بعيدا عن مخاوف الحياة ومتاعبها، ونلجأ إليه كلما أثقلت كواهلنا اعباء السعي وراء لقمة العيش ومطالب الحياة إلى عالم السحر والجمال المعنوي.

أسهم الفنان المسلم إسهاما فعالا في إيجاد الناحية الابتكارية في طابع تجريدي أخذ يتجاوز المؤلف من الأشكال الظاهرية يسير بها غور الأشياء المنظورة إلى الأشياء الكامنة المستورة فنقل بذلك مسار الفن عن القشرة السطحية إلى اللب الداخلي وجسم المعنى والروح، وأعرض عن الأقيسة والموازن المادية، آمن الفنان المسلم بعلاقة الأشكال المنظورة بجوهر المهام الوظيفية ومتطلباتها الانسانية فأخى بين المظهر الشكلي والجمالي والقيم العملية الوظيفية النافعة، وفاق الفنان المسلم أنداده الآخرين في الحضارات الاخرى، ويعد اكثرهم اجتهادا في التغلب علي صعوبة المساحات والفراغات وتركيب الأشكال والاجزاء في تكامل فني وتناسق أخذ مستغلا كل الوسائل الزخرفية، ومعتمدا على العناصر النباتية والهندسية والخطية والحيوانية والوصول إلى درجة عالية من التآلف العذب بين هذه العناصر المختلفة.

وعالج الفنان المسلم مناظر الحياة اليومية ومجالس الطرب بزخرفة كثير من المنتجات المعدنية المكتفة ويزداد استخدام الزخارف النباتية بخطى النسخ والتلث وبعض الكتابات الزخرفية بالخط الكوفي .

لقد أصبح الدور المهم الذي لعبته الثقافة الاسلامية وتراث حضارة الإسلام من علم وفكر، وفلسفة وفن في نهضة الفكر الاوروبي وازدهاره من الامور التي يجمع عليها الباحثون، بل من الحقائق التاريخية الثابتة التي لاسبيل إلى إنكارها رغما عن آراء بعض المتعصبين الذين ينكرون ذلك، وما إن طلع فجر هذا القرن وازدهرت حركة الاستشراق وتوالت بحوث الدارسين والعلماء لتراث حضارة الإسلام، حتى أخذ لفيف من الباحثين المنصفين الجادين على عاتقهم مسئولية التصدي للدفاع عن الفن الإسلامي وإسناده إلى موضعه الصحيح على صفحات تاريخ الفن والحضارة الانسانية.

مبينين بالادلة والبراهين تأثيرات الفنون الإسلامية في المجالات كافة في فنون أوروبا في تلك العصور، تحذوهم في ذلك الموضوعية التامة والأمانة العلمية والبعد عن التعصب.

وعلي ذلك طلع علينا الكثير من الأبحاث والدراسات الفنية المستفيضة التي تؤكد تأثير الفن الإسلامي في فنون أوروبا في عصور نهضتها وما قبلها أيضاً وبرزت في هذا المجال أسماء عديدة لكثير من علماء وباحثي الغرب والشرق علي السواء الذين تناولوا هذا الموضوع ومن الفريق الاول نذكر علي سبيل المثال "جورج مارسبييه، جوستاف لوبون، كويلر يونج، ريتشارد إيتنجهاوزن، مارتن بريجز، زيغريد هونكه، بريجتيه كليه، باتيسيه، لينورمان، شارل لان، جاستون ميجون وغيرهم".

أما الباحثون العرب فنذكر منهم علي سبيل المثال " زكي محمد حسن، حسن الباشا، عبد العزيز مرزوق، عبد الرحمن بدوي، أحمد فكري، محمد أحمد عيسي، عفيف بهنسي، ثروت عكاشة وغيرهم".

وقد تلتقت أوروبا أثار الثقافة العربية الإسلامية في العصور الوسطى في بداية الأمر عن طريق التجارة، حيث كانت تنقل البضائع من آسيا إلى أوروبا الشرقية والشمالية، ثم شقت الحضارة الإسلامية طريقها إلى غرب أوروبا بعد ذلك عن طريق معابر أبرزها الاندلس وصقلية وجنوب إيطاليا وبلاد الشام والحروب الصليبية.

وعن طريق هذه المعابر تمكنت أوروبا من إحياء ثقافتها مرة ثانية وأزدهرت فيها العلوم والآداب والفنون وقد أكد ذلك الكسندر كوريه أحد علماء الغرب المشهورين بقوله: " إن العرب كانوا أساتذة الغرب اللاتيني ومتفقيه وانهم لم يكونوا مجرد واسطة بينه وبين الشرق اليوناني كما شاع القول .

فلولا ابن سينا لكان ظهور القديس توما امرا مستحيلا وأي مصير كان ينتظر المخطوطة الوحيدة من كتاب إقليدس لولا وجود العرب الذين ظلوا حتى القرن السادس عشر مرجعا في قرطبة يرحل اليه الاوربيون ولم يكن هناك من علم الا العلم الذي في الكتب العربية، كما أكد ذلك روجر بيكون بقوله: إن كل الثقافات الأدبية والعلمية في القرون الوسطى المسيحية كانت موسومة بخاتم الإسلام وعلامته.

فهذا الفن الذي يقوم على الحد الصوفى الذي يوحد الإنسان مع عالمه فيخترق به حدود الشكل الظاهر إلى أعماق الحقيقة الباطنة المطلقة، وهذا الفن الذي ادرك الكون ككل واحد وجوهر مطلق هذا الفن لا يمكن ان يدرك الإنسان حقيقته ويتفهم جوهره وقيمتة بالنظرة السطحية المحدودة والضيقة بل لا بد للفنان - إذا أدرك ذلك - أن يغوص في أعماق هذا الفن كي يصل إلى حقيقته ويكتشف جوهره.

وهذا لم يفعله سوى الفنان الحديث برؤيته الجديدة ونظرته الناقدة، وسعيه الدؤوب وراء الحقيقة المجردة والجوهر المطلق ذلك ان الفهم الواعي للفن الإسلامى والاستيعاب الحقيقى لفلسفته ومفهومه وفكره ومضمونه، وماينطوى عليه من قيم جمالية وروحية قد تحقق على يد فنان العصور الوسطى وعصر النهضة، ذلك الفنان الذى أستطاع بحدسه وببصيرته قبل بصره أن يكشف الجوهر ويستوعب القيم ويستلهم الخصائص.

ولم تكن قدرة فنان عصر النهضة بالذات على هذا محض مصادفة، بل لقد كان فنان عصر النهضة مهياً لذلك وهو يتطلع إلى الفن الإسلامى ذلك ان فنان عصر النهضة الذى كان يبحث عن اللغة الفنية المناسبة التى تحقق الحل الامثل لمعادلة تشكيل السطح، والذى كان يبحث عن الروح التى أفقدها فنه وعن مخرج لتلك الازمة التى وقع فيها نتيجة فرديته المطلقة وشططه المفرط من جهة، وآثار المدنية الحديثة وآلبتها وروح العصر الحديث بقلقه واضطرابه من جهة أخرى .. قد وجد ضالته المنشودة فى الفن الإسلامى فنا وروحا ومضمونا ذلك الفن الذى يمثل روح العصر على الرغم من قدمه، والذى تواعم بكل قيمه وخصائصه مع فكر الفنان الحديث ومفاهيمه ورؤاه تواءما فذا.

وإذا أردنا أن نحدد بدقة فضل تأثير الفن الإسلامى فى فنون الغرب والبحر المتوسط ، نذكر استخدام الصقليين للقباب والعقود والاعمدة الإسلامية فى عمائرهم، وإقتباس المعماريين الانجليز من العمارة الاسلامية الرسوم النباتية والزخارف، وتأثر الإيطاليين بتتابع الاحجار الفاتحة- والزاهية - اللون التى انتشرت فى العصر المملوكى.

لقد تأثر الأوربيون بالعرب المسلمين فى مجال فن البناء الحربى المتمثل فى القلاع والحصون بمدخلها وأماكن الدفاع عنها، فمن قلاع مصر وسورية اقتبس الصليبيون أساليب معمارية كالمشربيات، واقتبس الاوربيون من المسلمين الأسوار والأبراج البارزة.

وإذا كان للعمارة الإسلامية هذا الدور البارز والمؤثر فى الغرب، فإن الخط العربى قد سلك طريقه الى الدول الاوربية من خلال الانواع الغزيرة من الانتاج الفنى الإسلامى مما جعل فنانى اوربا يقتبسونه وينقشون حروفه على الفنون والصناعات الاوربية كافة باشكال متنوعة حتى ان شهادة"لا اله الا الله محمد رسول الله" كانت فى احيان كثيرة تكتب بطريقة تبدو نقوش على قطع العملة والوانى والحلى وادوات الزينة .. ويتجلي انبهار الفنان الأوروبى بجماليات الخط العربى فيما يقرره جوستاف لوبون فى كتابه" حضارة العرب" حيث يقرر أن الخط العربى بلغ حدا عظيما من الزينة، مما جعل رجال الفن فى القرون الوسطى وفى عصر النهضة يكثرون من استنساخ كل مايقع تحت أيديهم من قطع الكتابات العربية فيزينون بها مبانيهم المسيحية.

ومن أبرز الامثلة التي تدل على مدى تأثير الحرف العربي تلك الزخارف والرسوم الإسلامية التي نجدها منقوشة على سقف " الكنيسة الكاببلا بلاتينا" فى بالرموبصقلية، وهكذا يتضح مدى غنى الحرف العربي كعنصر تشكيلي زخرفي، مما ادى إلى شهرته وانتقاله الي دول البحر المتوسط كافة، وهكذا يتضح لنا أن الفن الاسلامى له أثر مهم وفعال في إثراء الوجود الإنسانى بحضاراته، وفى غزوه الفكري والفني والثقافي لعالم الانسان .. وتأثيره الكبير في الفنون الاوروبية.

أخذ بعض فناني العصور الوسطى وعصر النهضة والقرن الثامن عشر، فى إضافة الفن الإسلامى إلى أعمالهم بطريقة تكميلية أو زخرفية، من دون معرفة بما تحتوية من معاني الكلمات عند نقل أشكال حروف الكتابة العربية، أو إدراك لمعنى مفهوم الزخرفة عند الفنان المسلم، كل مافى الامر أنهم نقلوا الشكل من دون المحتوى بطريقة تدل على انبهار بملامح الاشكال الزخرفية.

وكما يقول كلود كاهن فى كتابه " الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية" إن القرن العاشر الميلادى شهد فى منطقة الشرق الاوسط ظهور عملية انتشار البداوة، التى لا تعني زيادة فى النسبة العددية للبدو ولا فى دورهم السياسى والعسكري .. أما الغرب الإسلامى على الرغم من وجود روابط ثقافية مختلفة أختلافا كبيرا عنه، إذ شهد فى اسبانيا فترة كان فيها قويا فى ظل الخلافة فى قرطبة.

كانت فلورانس هي البداية الحقيقية لعصر النهضة الذى أستمر طويلا والحق أن مدينة "فلورانس" كانت الشرارة الاولى لبدء عصر النهضة بما تحقق فيها من نهضة شاملة فى العلم والفن خاصة فى عهد كوزيمو ولورنزو أعظم رجلين فى بيت "ميدتشى" الحاكم. لقد دأب هذان الرجلان على شراء المخطوطات اليونانية والعربية، وعلى تمويل أعمال الكشف عن الآثار التاريخية كما كانا يستقبلان العلماء والأدباء والفنانين الوافدين على فلورانس من القسطنطينية والأندلس ويحتفیان بهم أیما احتفاء، هذا فضلا عن المكتبات والمتاحف والمجامع العلمية التى أنشأها، حتى غدت فلورانس فى عهدهما أشبه المدن بأثينا فى عصرها الذهبى.

كما يشير عز الدين إسماعيل فى كتابه " الفن والإنسان" إلى انه فى ظل هذا النشاط وهذا الاهتمام بالمصادر الأصلية والمتنوعة برزت النزعة الانسانية الجديدة التى غيرت وجه الحياة والفن لعدة قرون كما اسلفنا فمن الواضح أنه لم يكن هناك تحيز فى هذه الحركة لعقيدة بعينها أو لفكر بعينة بل استقبلت كل المعتقدات وكل الافكار بروح متفتحة وكان

الميزان الموثوق به فيما يصلح وما لا يصلح هو العقل فعلي محك العقل تعرض كل الثروة الروحية التي جري احيائها وبعثها إلى الحياة.

ومادام العقل قد برز فقد برزت معه حرية القبول والرفض لم يعد هناك الشئ "المقدس" كما لم تعد هناك تعاليم تفرض علي عقل الانسان وروحه فرضا، فقد صار الإنسان هو كل شئ هو الأصل وهو المحور وقد انعكس هذا كله في صرف العناية اي دراسة العلوم المتصلة بالإنسان وكذلك انعكست معاني هذه الحركة في مبدعات الانسان الفنية في ذلك الوقت وأثرت فيها بشكل ملموس.

ويشير أيضاً كل من ديونيسيوس آجيوس وريتشارد هيتشكوك في كتابهما "التأثير العربي في اوروبا العصور الوسطى" الذي ترجمة د. قاسم عبده قاسم إلى أن القرن الحادي عشر كان بالنسبة إلى الاوربيين عصر أكتشاف الآخر وكان هذا "الآخر" بالنسبة إلى اوروبا هو الامبراطورية البيزنطية من ناحية والعالم الإسلامي من ناحية أخرى وكان المسلمون يمثلون "الآخر" الغائب الحاضر دائما، فهو العدو المخيف والمكروه بالنسبة إلى أبناء الغرب الكاثوليك، وهو الجار المتقدم الراقي "المحسود" في الاتدلس وصقلية وبلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا، وكانت الحروب الصليبية ضد المسلمين في فلسطين والشرق العربي والمغرب العربي من ناحية وضد الدولة البيزنطية المسيحية من ناحية أخرى، محاولة عنيفة من قبل المغرب الكاثوليكى للخروج من جلد أوروبا الضيق.

في العصور الوسطى تأثرت الحضارة العربية الإسلامية، فكانت التجارة هي وسيلة الأتصال الإسلامي / المسيحي في العصور الوسطى ومنذ القرن الحادي عشر فصاعدا كان النشاط التجاري الأوروبي في عالم البحر المتوسط ومشاركة المسلمين نشاطهم فوق مياه هذا البحر فالنشاط قد زاد وتصاعد بعد سنة ١٠٠٠ م، إذ تأثر الاوروبيون بالاسلام القادم من مصر والعراق وإيران فضلا عن بلدان المغرب العربي وتأثرت الفنون التشكيلية الأوروبية في العصور الوسطى بالحضارة العربية الاسلامية وإن عددا من الحقائق تشير إلى المصدر الإسلامي لكل من الفكرة والشكل في كثير من الفنون التشكيلية الاوروبية.

ويؤكد عباس محمود العقاد في كتابه "أثر العرب في الحضارة الاوربية" أن الفنون الاسلامية منذ العصور الوسطى أثرت في الفنون الغربية وانتقلت الاساليب المعمارية والزخرفية ومعظم اساليب الفنون التطبيقية الخري الي بلاد الغرب، وكان ذلك بفضل عدة عوامل هيأت الظروف الملائمة لهذا الانتقال وكان اول هذه العوامل الحضارة العربية الاسلامية التي قامت في الاتدلس لثمانية قرون وكان لاشعاعاتها الفضل الكبير على اوروبا في مختلف المجالات العلمية والأدبية والفنية فضلا عن أن العرب حكموا صقلية وجنوب ايطاليا فنقلوا بذلك

تراثهم العربي الحضاري الي هناك ومن ثم إلى انحاء اوروبا كما ان الحروب الصليبية التي قامت بين الشرق والغرب كانت عاملا مهما في انتقال الفنون المعمارية التطبيقية الي الغرب.

وقد تعلم الشرق الحديث من اوروبا كما تعلمت أوروبا من الشرق وكان للحركة التجارية الكبيرة بين الشرق والغرب ومكان العالم العربي الاسلامي فيها بوصفة الجسر الذى يتوسط بين الشرق الاقصى وبلاد الغرب ومكان العالم العربي

الشرقية تصاوير مرسومة بالاسلوب الاسلامي منها كتاب " إنجيل طفولة المسيح" وتاريخه ١٢٢٩م كتبه مسيحي في ماردين من بلاد الجزيرة وفي فلورانس مخطوط من الانجيل تزوقة تصاوير ذات طابع اسلامي.

وأهم ماأقتبسه الغرب عن العرب الشارات وتسمى "الرنوك" وهي مناطق دائرية أو بيضاوية أو تحمل علامات أو إشارات تدل علي ان صاحبها يشغل وظيفة معينة في البلاط فمثلا السيف علامة للمكلف بشؤون الأسلحة والكأس للمختص بأمور الشراب .. إلخ هذه الشارات شاعت في عصر الأيوبيين في مصر كما أن بعض الشارات اتخذها سلاطينهم شعارا خاصاً بهم، مثل النسر الذى كان شعاراً لصلاح الدين الايوبي والأسد شعار الظاهر بيبرس، واستخدمت هذه الشعارات في مختلف المجالات الفنية والعمائر والمنسوجات والوانى الزجاجية والفخارية.

لقد ورث المسلمون الشارات "الرنوك" عن القدماء ولكونها مألوفة عندهم لم يلتفت إليها مؤرخو العصور الوسطي فلقد عرف الحثيون النسر ذا الرأسين واتخذوه شعارا لهم واستخدمه بعد ذلك المسلمون في العصر السلجوقي شعارا ايضا ثم اقتبسه الاوربيون من المسلمين فأصبح شعارا للأمبراطورية الرومانية المقدسة في القرن الرابع عشر للميلاد وقد أهتم الأوربيون بالرنوك بعد ذلك فنظموها في سجلات وأصبحت لها تقاليد خاصة وأصول متبعة ولا يحق لأسرة أو أي جهة أن تستخدم شعارا استخدمه غيرها.

ولقد فطن المصورون إلى أهمية التحوير فقال ماتيس: " إن الدقة لاتؤدي الي الحقيقة" فالحقيقة ليست الصورة المطابقة للشكل، ولكنها في الشكل المطابق للمعنى الكلي ويقول بشر فارس: "لقد كان الفنان المسلم يسعى إلى تجاوز عالم الشهادة" للوصول إلى عالم الغيب ولذلك فإنه عندما يرسم شكلا ما في مخطوط ككتاب " مقامات الحريري" الذى رسمه الواسطي أو علي جدار، كما في قصر الحير الغربي وقصور سامراء، لم يكن يسعى وراء الصورة إلى الدقة والمحاكاة، بل إلى إسقاط حدسة العام عن عالم غير ذى حدود وفواصل، وبقدر ماتبدو الصورة محورية وغير مشابهة للأشياء المرئية، يكون إرتباط بعالم الغيب

قويا حتي يصل به هذا الإرتباط إلى تحويل الفكرة إلى الإشارة، وقلب الواقع لرمز كلي عازفاً بذلك عن الحياة لاجئاً إلى الله وكأئنا يري في تصوير الحياة متاع الغرور وهو متاع يضمحل وينحل بإزاء الذي بين يدي الله.

أستطاع الفن الإسلامي بمقوماته الجمالية الخصبة. أن يؤثر في كثير من مفاهيم الأوروبيين من خلال التأثير في أعمال العديد من الفنانين الأوروبيين:

ويري زكي محمد حسن أنه لذلك انصرف الفنانون المسلمون إلى إتقان أنواع من الزخارف بعيدة عن تجسيم الطبيعة النباتية زخارف جردوها عن أصولها الطبيعية وأسرفوا في استعمالها حتي أصبحت تعرف ب"الارابيسك" أي الزخارف العربية كما عني الفنانون المسلمون بحسن الخط فقد اتخذوا من الكتابة ضرباً من الزخارف أصبحت من أشهر مميزات الفنون الإسلامية أما بريون فيري أن الفكر الإسلامي قام علي الروحانية العميقة:" فالفكر الإسلامي قد قام علي تمجيد المثل الأعلى "الهُو" وليس علي تمجيد "الانا" ولقد تمثل هذا في فنونه المجردة، فالفن التجريبي أكثر قدرة من الفن التشبيهي علي التعبير عن الروحانية العميقة والعالية ذلك لانه لا يرتبط بالشكل التمثيلي ولأنة أيضا من دون وساطة قادر علي ان يثير مباشرة حالات عاطفية وانفعالية خالصة أكثر من تلك التي يثيرها الشكل التمثيلي فالفنان كل مرة يسعى فيها إلى التعبير عن كل ماهو روحاني أو إلهي كأنه يسعى الي التجريد وهذا ماجري فعلا في الفن الإسلامي بصورة عامة".

وهكذا سعي الفن العربي الإسلامي والفنان التجريدي علي السواء إلى التعبير عن المجهول أو عن المحدود وغير المرئي.

وإذا كانت الزخرفة العربية الإسلامية قد أثرت كثيرا في منهج ورؤية العديد من الفنانين الأوروبيين، فإن الخط العربي وهو واحد من أهم نتاجات الفن العربي الإسلامي بما في أشكاله من تنوع وتعدد غني، وبإمكان زخرفته بصور عديدة قد أثر كثيرا في رؤية وأعمال عديد من فناني اوربا فقد امتد تأثيره منذ ان جاءت الحروب الصليبية واحتك الأوروبيون بالعرب فآثارهم واعجبوا به لما وجد فيه من غني شكلي واستخدموه في اعمالهم الفنية، حيث كان جيوتو من أوائل الفنانين الذين استخدموه في لوحاتهم وكذلك المصور الفلورنسي فيليببولي الذي استخدم الكتابة العربية كزخرفة علي ثياب الاشخاص التي يرسمها في القرن الخامس عشر، وقد أستفاد أيضا الفلورنسي فيريكيو من الخط العربي في زخرفة لوحة تبجيل الملوك المحفوظة في فرنسا.

وهكذا أستطاع الفن الإسلامي بمقوماته الجمالية الخصبة. أن يؤثر في كثير من مفاهيم الأوروبيين من خلال التأثير في أعمال العديد من الفنانين الأوروبيين، حيث انهم وجدوا في

ملاحه معيناً لا ينضب في أعمالهم الفنية واكتشاف أشكال جديدة ذات ملامح وإيقاعات حيوية موازية في حيويتها لوفرة الحركة والإيقاع الموجود في التراكيب الأرابيسكية وخطوط الكتابة العربية.

وقد ظهر استعمال الحروف العربية للزخرفة في فن التصوير الإيطالي منذ أيام جيوتو، مثال علي ذلك ماعلي الكتف الأيمن في صورة المسيح عليه السلام في لوحة لازروس بكنيسة أرينا ببادوا، وكان فرا أنجيليكو وفيليبولبي مغرمين بهذا النوع من الزخرفة، وقد استعملاه حتى في اكامم العذراء وحواشي ثوبها.

وهكذا ظهرت في القرن السابع عشر في إنجلترا وأوروبا لفظة الأرابيسك، وهي التي تعبر عن نوع خاص من الزخارف التقليدية، قوامها الفروع النباتية المنقوشة القليلة البروز مستمدة اسمها من مصادرها الأصلية ومحتفظة به حتى وقتنا هذا، ومصدر هذه الزخارف هو أسلوب التوشيح العربي وهو ابتكار إسلامي ظهر أول مآظهر في الزخرفة الفاطمية وفي مسجد الأزهر في منتصف القرن الرابع الهجري، وهو أسلوب تتلخص مبادئه في تنسيق الأشكال النباتية داخل مصلعات هندسية مجردة تتعاقب فيها السيقان والأغصان وتمتلئ الفراغات وتتكرر التموجات الخطية تكراراً تختلط فيه البداية والنهاية ويتحقق فيه التماثل والحركة التوقيعية وقد تكون أسلوب التوشيح العربي من الجمع بين الزخرفة الهندسية وزخرفة التوريق، وهما أسلوبان عربيان أما الزخرفة الهندسية المجردة فقد شاعت شيوعاً كبيراً في الفنون الإسلامية وقد تنوعت شاملة جميع التشكيلات والتركيبات الهندسية من دوائر وحلقات ومقوسات ومثلثات ومصلعات ومعينات مبسطة ومتداخلة مركبة، وقد لقيت هذه الزخارف الهندسية الإسلامية إعجاباً في الفنون الأوروبية.

لقد ألف الصناع الأوروبيون شكل الخط العربي بالتدريج مع انهم لم يستطيعوا أن يقرأوه، ومنذ ذلك الوقت أخذ نقل الحروف والزخارف الإسلامية يزداد انتشاراً في صناعة أوروبا ويقول سبنسر: "لا يستطيع عالم واحد ان يتأمل القبة الزرقاء من دون أن يلفظ أسماً عربياً". فبحق كان للعرب الأثر وهو الذين لقحوا الحضارة الفنية الأوروبية بدم فني جديد مع الإشارة إلى تأثر الرسامين الأوروبيين بالخط العربي، ومحاولتهم تزيين بعض رسوماتهم به من دون فهم معناه في بعض الأحيان كـ"لا إله إلا الله ومحمد رسول الله".

المصدر / جريدة الفنون.

الكاتبة /إيناس حسني .

التاريخ/ مارس ٢٠٠٦.

الطبعة السادسة.